صفحة من كتاب

من جوف الليل

للأستاذ شكرى فيصل

— ١ —

أرقت فى هذه الساعة فما استطعت أن أنام ... لقد حاولت أن أغمض عينىّ ، وأن أستسلم لهذه الرؤى البارعة ، وتلك الأحلام الرائعة ، وذاك الجمال الذى أهواه ، لعلى أنام على ذكراه وأغنى على هدهدته ، وأجد اللذة فى مداعبة خياله ، والأنس بحبّاه ، ولكنى لم أفد شيئاً من هذه المحاولة . إن النوم ليعصينى كأن بينى وبينه عداء ؛ وما كنت لأعادى إنساناً أو أغضب رجلاً ، أو أسىء إلى مخلوق ، لأن قسوة الحياة علمتنى منذ كنت طفلاً منكمشاً فى زاوية المدرسة ، وحيداً فى أطراف الطريق ، معتزلاً فى ركن البيت ، ألا أقسو على أحد ، وأن أنشد الخير لهؤلاء الناس جميعاً ؛ فليس أحلى من الخير ، ولا أحسن منه استثارة للعاطفة ، وإرضاء للشعور الغاضب المضطرب

— ٢ —

لِمَ يجفونى النوم ؟ ولِمَ يباعد بينى وبين أحلامى الهانئة وقصورى الناعمة فى جنات الخيال ؟ ولِمَ يريدنى على أن أساهر النجم وأراقب الكواكب وأشهد صفحة السماء بيضاءَ ، بينما تتطلع إلى السماء بألف عين فأخافها وأخشاها ، وأرتد منها ، وأفر إلى أعماق السرير ، وأستر وجهى بهذا الغطاء الكثيف ؛ فلا أنجو من الرعب ولا أخلص من الارتعاد ، وتظل هذه الأعين تطل على ، وتلحق بى ، وتتعثر فى ناظرى ، وترمقنى بشعاعها النافذات ؟!

أى شىء أصبت من إثم حتى يجردنى الله من لباس الليل ، فلا أرتع فيه ، ولا أغيب فى آفاقه السعيدة أنسى هموم اليوم ومتاعب النهار ، وأخبار السوء ؛ ولم تتوالد على الذكريات أليمة محزنة ، وتطوف فى خاطرى كئيبة سوداء ، وتنشر فى نفسى ليلاً آخر بكل سواده القاتم ، وجلاله المخيم ، ونجومه المنطفئات ؟!

— ٣ —

لم تعد لى قوة أحتمل بها هذه الوحشة ... لقد كنت ألقى أهوال النهار فأفر منها إلى الليل ، ولكن الليل يطاردنى عنه ، وينفينى منه ، ويريد أن يحول بينى وبينه . لقد وسع كل شىء : كل الخيرين والأبرار ، والآثمين والأشرار ، والناعسين والأخيار ؛ ولكنه ضاق عنى ، وقذف بى إلى منارة هائلة لا أدرى أين أستقر فيها ...

رحمة بالضعفاء يا ليل ! إن الذين تزدريهم أعينك الليلة ، ويتجافى عنهم مداك الواسع ، وسلطانك الممتد ... ليس لهم ما يستريحون إليه إلا هذه الساعات يقتطعونها من عمر الزمن ، ويختلسونها من حياة الدهر ، ويسرقونها سرقة الجائع المتهالك للكسرة الجافة واللقمة الشاردة لينعموا بها ساعة فى نوم عميق ينسون فيه أنفسهم ، وهذه الآفاق التى تحيط بهم ، وتلك الذكريات التى تنغّصهم ، وحادثات الألم التى تصك مسامعهم فلا يملكون بعدها الحركة والشعور ، فهلا رفقت بهم أيها الليل ، هلا ضممتهم فى نعيمك الممتع ، ولففتهم بسكونك التراخى ، وتركتهم إلى هذا الهدوء الذى ينشدونه ، وهذا الصفاء الذى يرمقونه ، وتلك الفترات التى يتطلعون إليها ليجددوا بعد القوة على احتمال الأسى ، ولقاء الشرور

— ٤ —

إنى لأخشى هذا الفضاء الهائل الذى أجدنى فيه ، ليس من حولى شىءٌ ، ولا إلى جانبى إنسان ، لقد ذعرت حقاً حين مددت يدى هنا وهنالك ، وأجلت بصرى أمام ووراء ، فلم ألق هذه الإنسانة البرة الحنون التى رعت طفولتى بشفتيها ، وغذت يفاعتى بدموعها ، ونشأت صباى من دم قلبها ... لقد أدركت ... إنها بعيدة عنى ، وأن بينى وبينها آماداً ومسافات يرعاها الله ، ويكلؤها الرحمن ، فمن لى باليد التى تطوق عنقى ، من لى بفيض علىّ الجرأة ، وبعث فى القوة ، وبطرد عنى خوف الليل ؟

إن فضاءً كبيراً حولى ... وإن فضاءً أكبر فى نفسى ... وليس فى وسعى أن أملأه بما أرى فى النهار ، وأسمع فى الطريق ، وأحس فى العمل ، لأنى لا أرى شيئاً ، ولا أسمع صوتاً ، ولا أحس حركة . لقد ابتلع الليل كل شىءٍ ، فطواه فى ثناياه ، وضمه

إلى حشاه الواسع ... إلا أنا ... إلا أنا سهران لأنه يفيق عنى ، فأظل مشرداً فى كهوف مرعبة من الشكوك والأحزان : شأن هؤلاء المشردين فى أطراف الأحياء ، وأرصفة الشوارع ، وحافات المقاهى فى النهار ، ولكنى أنا مشرد ليل ، وليس لهذا الليل ندى آوى إليه ، أو صديق أسلو معه ، أو شارع أجوس خلاله ... ليس فيه إلا الفراغ المرعب ، وهذه السهام المسددة التى تبعثها النجوم فى نفسى

— ٥ —

أخذت أتقلب فى أطراف السرير وألوذ بجوانبه ، ولكن الحركة لم تكن لتنجو بى من هذا الذى أشقى به ، وأطراف السرير وجوانبه قلقة حائرة . لقد نبا بى كل شىء : حتى هذا الغطاء الذى آلفه فى الليل وفى طرق النهار ... إنه ليضطرب فوق جسمى كأنما أنا أرتعد ، وما أدرى سر هذه الرعدات الخانقة وما أعرف متى أخلص منها ... إن القمر الدائر ليتراءى لى ، وإنى لأحاول أن أفزع إليه ... ولكن المسكين لا يقوى على شىء . لقد أهزله الطواف حول الأرض مدى عشرين يوماً ونيفاً فلم يُبق منه إلا الجسم الناحل والعظم المقوس ، ولم يعد له ذلك البريق الذى كان يفيض منه ، ولا ذاك الألق الذى ينساب من أطرافه ، ولا تلك الأضواء التى كانت تغمر الأرض ، وتنير حواشى السماء ، وتطرد ظلمات النفوس . لقد أضحى كابى النظرات ، خامد الحسن ، متهافت القوى ، وأصبح جمرة هامدة بعد أن كان شعلة متقدة . إن طبقة من الرماد الأزرق تحاول أن تطفى عليه . لقد امتدت إليه فعلت فيه كما يعمل الحمل ؛ ونفثت فى طرف منه فتقبلها بضحكته الكاملة وبسمته المستديرة وغمرها بألقه الحنون ، ولكنها كانت من طباع الناس : فيها لؤم وغدر ، وفيها إثم وشر فلم تزعه ، وإنما أخذت تنفث سمومها فيه . لقد بترت أوصاله ، وإنها لتسرى الآن إلى أحشائه تلتهمها . لم يبق بينها وبين قلبه شىء . إنها لتكاد تلتهم هذا القلب الكبير الذى وسع الأرض وطاف حولها ، لا تكبر شيخوخته ، ولا تحترم مشيبه ولا تذكر إحسانه إليها ... ها هى الماكرة تسرق قلبه وتأتى عليه ... لقد أضحى القمر المسكين ذؤابة بيضاء منحنية لا تملك أن تتماسك ، ولا تستطيع أن تشتد ، وستلحق هذه الانحناءة النادية بالقلب الكبير : لتجد معه فى العالم الآخر عهود الصفاء والضياء والنور

— ٦ —

لقد نهضت أمشى ... ولكنى لا أملك أين أضع قدمى مخافة أن أنزلق به ... إنى لأحبو كالطفل ، أتلمس الطريق بكل أطرافى وحواسى . لقد عدت طفلاً لا يعرف كيف يسير ، فهو محتاج إلى من يمسك بيده ويأخذ بساعده ويمضى به ، فهلا أخذت بساعدى — أيها الليل — ومضيت بى كما تمضى بكل هؤلاء الناس إلى أحبتهم يناشدونهم الوصل ، ويعتبون عليهم القطيعة ، ويلومون منهم هذا الإهمال ، وإلى أعلمهم البعيدين منهم المتغربين عنهم : يبثونهم الحنين ، ويهدونهم التحيات ، ويطبعون على جبينهم قبلة الحب التى يملأ كل جارحة ويغطى على كل شىء ، وإلى معاهد الصبا يطوفون فيها ويسعون فى جنباتها ويرددون فى آفاقها نشيد المرح والسعادة ، وإلى أرض الوطن يسألونها ما ذا حل بها وأى شىء أصابها ، وما ذا فيها من مكر الدهاة ومكاره الدنيا وعبث الزمان ؟ ؟ وهل من بلاء — لا كان — يلقاه أبناؤها الغر : الذين يحملون فوق كل ما يحمل أبناء العالم من واجبات المدرسة والبيت ، وحقوق المدن والريف ، وأهداف الوطن والمستقبل ، وغايات العرب والإسلام ؟ ؟

— ٧ —

لم يعد فى وسعى شىء — أيها الليل — لقد سددت النافذة وأقفلت الباب ودفنت وجهى فى الوسادة ، ودسست كل أطرافى فى أعماق السرير كى يتحصن ... ولكنك لم تشأ أن ترفق بى : إن الباب ليطرق طرقاً عنيفاً ، وإن النافذة لتهتز هزة شديدة ، وإن كل ما حولى ليتحرك ... ولكنى سأجمع كل قوتى ، وستتركنى أنت هنا فى هذا الأسر الموحش ... غير أن النهار سيضىء وسيحسن إلىّ مرة ، لأنه يعرف أنه أساء إلى مرات ، وسأنهض على قدمىّ وأفتح ناظرى وأرى النور ...

— ٨ —

إنّ غبش الفجر ليلمع فى جبين الليل ، وإن همسات خافتة من أضوائه لتتراءى لى ... هذا السواد يهزل ويهزل ، إنه ليمضى فى طرف الأفق مطرقاً مستحيياً ، ولكنى سأغفر له هذه الإساءة لأنى أحب هدوءه وأعشق صفاءه وأعيش فى أحلامه ...

« القاهرة » شكرى فيصل